"إضافة الجهات الأربع"

تعليق د. إبراهيم السامرائي
عضو مجمع اللغة العربية الأردني

إن بيت زفر بن الحارث رُبَّما عرض له من الضـــرورة التـــي تضطـــر الشاعر وإن كان جاهلياً أو متقدّماً أن تفرض وجودها فجاء الجنوب غير منسوب من أجل الوزن.

وقد أقول مثل هذا في بيت الشريف المرتضى.

إن الضرورة قد حصلت أو فرضت حكمها في بيت امرئ القيس:

فاليوم أشربْ غير مُستحقبٍ إثماً من الله ولا واغلِ

لقد جاء الفعل "أشربْ" مجزوماً وليس من جازم، وكأن المبرّد قد اســـتبعد أن يكون هذا فجاء برواية تفرّد بها وهي: "فاليوم ألهو غير مُستَحقبٍ".

وفات المبرّد أن هذا قد عرض للنابغة في قصيدة "المتجرّدة" الدالية، فـــي قوله:

وبذاك خبّرَنا الغرابُ الأسودِ

والوجه: الأسودُ.

ومثل هذا ما كان في مطوّلة زهير:

كأحمر عادٍ...

وهو يُريد "أحمر ثمود" وهو قُدار بن سالف عاقر ناقة النبي صالح – عليه السلام –، وقد ذهب زهير إلى "عاد" لأن "عاداً" لا ترد إلاّ مع ثمود كثيراً كما في لغة التنزيل العزيز.

لقد أشار إلى هذه الضرورة الأصمعي، وهو الخبير بالأمم القديمة. غير أن الذين كانوا يتعقّبون الأصمعي قد ذهبوا إلى عدم وجود الضرورة لأن "عاداً" في بيت زهير هي "عاد الآخرة" أي ثمود.

أقول: لقد أشارت الآية إلى "عاد الأولى" وهم قوم هود، ولم يكن من إشارة في لغة التنزيل إلى "عاد الآخرة". وكأن هذا الذي سعى إلى هذا من جملة الذين كرهوا الأصمعي لمكانته لدى الخلفاء العباسيين، وانحرافه عن العلويين.

أقول: وقد أتى في الضرورة شيء يشبه هذا، فهذا الحطيئة قد كان له "داود بن سلاّم" في عجز بيت وهو يريد النبي داود بن سليمان – عليه السلام –. هذا هو حكم القافية.

ولنا في خبر عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وهو من أوائل النحويين، مع الفرزدق القصة المشهورة. انظر "نزهة الألباء" للأنباري (ترجمة الحضرمي).

وأعود إلى المعاصرين عامّة الذين لم يفطنوا إلى أسلوب المتقدمين في كَسْع الجهات الأربع بالياء جهلاً منهم بهذه القاعدة.

ولا أعزو بيت الجواهري الذي جاء فيه الشمال والجنوب من غير نسبة إلى ما يقتضيه الوزن، وذلك لأن الشاعر لا يعرف هذا، وهو إن عرفه فلا يجد فيما قاله ضيراً.

وأما توقّف الباحث فيما كان لي في استعمالي "بلدان الشمـــال الإفريقـــيّ" فأقول: إن هذا بعيد عن القاعدة التي توصّل إليها، وذلك لأن "الشمـــال"، وهـــي الجهة، قد وُصف بصفةٍ نُسبت وفيها ياء النسب، وهذه النسبة تغني عـــن نسـبة المضاف وهو "الشمال". ولو قلنا: "الشماليّ الإفريقيّ" كما أراد الباحث لكان لنـــا عبارة ثقيلة، والعربية تهرب من مواطن الثقل.

لقد عرفنا هذا في بعض تراجم الرجال، فهذا أبو الحسن الدار قُطْنيّ مـــن كبار رجال الحديث في القرن الرابع كانت نسبته إلى "دار القُطْـــن" محلـــة فـــي الجانب الغربيّ من بغداد والنسبة بالياء إلى المضاف إليه وهو "قُطن"، وقد خـــلا المضاف وهو "دار" من الياء.

أقول في تكملة صاحبي المجتهد الألمعي ما يأتي:

أقول: يضاف الشمال والجنوب إلى الشرق والغرب، ولا سيما في عصرنا في مادة الجغرافية وغيرها فيقال: الشمال الشرقي والجنوب الشرقي، والشمـــال الغربي والجنوب الغربيّ.

وليس لنا أن ننقل العبارة فنَكْسع الشمال والجنوب بالياء لما في ذلك مـــن ثِقَل هرب منه المعربون، الفصحاء الأوائل.

أقول: لم تعرض قاعدة صاحبي إلى هذا الأمر الذي نعرفه فـــي عربيتنـــا المعاصرة، وليس في شواهده شيء منه.

وأختم هذا التعقيب الموجز وأُحيّي فيه صاحبي المغترب ردّ الله ســـبحانه عنا جميعاً هذه الغربة.